روسيا

الجمهورية داغستان

محاچ قلعة شارع عزيز علي ٢

الإدارة الدينية لمسلمي داغستان

فاكس ٦٣٦٤٧٧

هاتف ٦٣٤١٨٥

تنبيه السالكين

إلى

غرور المتشيخين

العلامة الولي الكبير

حسن بن محمد حلمي القحي النقشبندي الشاذلي

المتوفى سنة: ١٣٥٦هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمَّد سيِّد الأوّلين والآخرين ، وعلى آله وأصحابه أئمة الهدى ومصابيح الدنيا إلى يوم الدين .

أما بعد ؛ فلِكَوْن ذكر السادات سبباً لنزول الرحمة ، والمحبَّة بهم وسيلة للوصول إلى الدرجة العلية ، والارتقاء إلى المراتب الجليّة الإلهيّة ، ووسيلة إلى الرسول سيد البريّة ؛ أردت أن أبيّن آثار شيخنا وشيخ مشائخنا ، قطب الإرشاد ، ومنبع الفيض والإمداد ، المشتهر في الأقطار والبلاد بإرشاد الخلق إلى سبيل الرشاد ، قطب الأولياء الربّاني ، وإمام الطريقة الصَمداني ، صاحب التأليفات المستطابات ، ومبيّن أسرار الطريقة العلويّات ، وحيد زمانه وفريد أوانه ، مجدّد الطريقة النقشبندية العليّة ، والشاذلية السنية ، والقادرية الجليّة ، ومحقق أسرار الطرق الحقيقية المحمَّدية والشريعة الأحمدية ، وحافظ السنن المختارية ، المتورع في جميع أموره الدينية والدنيوية ، المتخلّق بالأخلاق الحميدة الحسنة المختارية ، ذي الطبع السَليم ، والمؤدّب الحليم ، حاوي المكارم والفضائل ، الحامي عن الغوائل والرذائل ، ذي الغيرة والمروءة والصبر على البلاء ، والرضاء على القدر والقضاء كثير الإخفاء فيما وهبه الله تعالى من الكشوفات الإلهية والفتوحات الرَبَّانية ، والمشمّر في طلب العلم عن ساعد الجدّ والاجتهاد ، ولازم الأخذ والتلقّي عن أبطال الرجال ذوي البصيرة والإمداد ، الفاني الباقي في الله ، العالم الفاضل البارع جامع الكمالات ؛ أبونا المعنوي :

حسن حلمي أفندي بن محمد بن حسين القحي الداغستاني

النقشبندي الشاذلي القادريّ قدس سره وأفاض علينا من فيوضاته . آمين .

مولده ولد في قرية « قحِب » من قرى ناحية « هِدْ » سنة ألف ومئتين وثمانين من هجرة خير البرية محمد المصطفى ﷺ .

نشأته وكان ابناً مسعوداً وطفلاً محموداً ، مباركاً ميموناً ، ذا أحوال حميدة ، وشمائل جميلة ، ذا عقل وغَيْرة كاملة وفطنة عجيبة ، يغبطه كلّ من رآه ، ويحبّه كلّ من لقيه ، وكان ذا أدب بلا تأديب ولا مؤدِّب ، وإنّ أباه المذكور الحاج محمدا ؛ مات وهو في المهد في بلدة جِدَّة وقت رجوعه من الحج ، ودُفن فيها قرب قبر أمّنا وأمّ بني آدم حوّاء رضي الله عنها ، وصار هو رحمه الله تعالى يتيماً في تربية الوالدة ، وأنها جزاها الله تعالى خيراً ربَّته بأكمل تربية ، وترعرع في نظرتها الحسنة العفيفة كما يربَّى أولاد أهل الثروة والمعيشة الواسعة ، وكانت له دليلة إلى كلّ خيرٍ ، ومانعة من كل ضرٍّ ، ومقدِّمة لكل فضل ، وحافظة من كل ذُلٍّ .

تلقيه العلوم فلما بلغ إلى سبع سنين ابتدأ لقراءة القرآن بنفسه بلا داعٍ ولا هاد إليها ، فبعد إتمام فرائضه وتصحيحه ابتدأ لطلب العلم ، واختار للتدريس العالمَ الورع المخلص والد صاحبته وخادمته القاضي « حسن بيك » ، وكان يقرأ الدرس معه صبيحة كل يوم ، ويذهب إلى الفضاء راعياً لأنعامهم ، ويأخذ الكتاب معه ، ويتعلّم الدرس إلى المساء ، ثم إذا رجع إلى البيت لا يخرج مع أقرانه إلى الملاعب ، ولا يضيّع أوقاته بالتعطيل مع الصبيان ، وكان يكتب الدرس الذي يقرأ له في الصباح ، وكان له خطٌّ جسيم حسن جداً ، وكتب كلّ ما قرأه من الكتب بخطه ، واجتهد لتحصيل العلوم حتى كان لا ينام إلا قليلا ، ويسهر الليالي كثيراً ، وكان لا ينام تحت اللحاف

واللفاف بل يضطجع في حالة يكون نصف جسده خالياً من الأغطية ، كي يسهل له القيام في السحر .

وأنه أيضاً طلب العلم من العلماء الأجلّة المخلصين الورعين ، فصار ماهراً حاذقاً في جميع العلوم والفنون بحيث يعترف له فحول العلماء والعقلاء لذكاء فهمه وعلمه وعقله ، وإن لقيه أمير أو كافر خضع له وخشع ، وما بقي فيه مسلك من مسالك الكمالات إلاّ حازه ، فإن سئل عن مسائل العلوم ؛ وإن كان غريباً ، كان يجيب بأحسن جواب ويقول بلسان حاله : هل من مزيد ؟ ! هذا منه مع صغره وقبل تمام نشأته ، ومع تجاهله عن كثير من العلوم .

ثم بعد ذلك في وقت كمال النشأة والبلوغ دخل إلى الوظيفة البهلوانية[1] ، بسبب سرٍّ من أسرار الله تعالى قذفه جل وعلا إلى قلب والدته زهيدة حين رأت بهلواناً حاذقاً بأن تريد أن يكون ابناً لها ، فأجاب الله تعالى لسرّ خاطرها ، ووهب لها ابناً فائقاً منه ، وكان هو حاذقاً ماهراً في تلك الصناعة ؛ ولم يكن في زمانه مثله في تلك الوظيفة .

وكان يقرأ قبيل الصعود إلى الحبل سلسلة المشائخ وأسماء الأولياء ، ويعظ الناس ويذكّر لهم أهوال القيامة ، ويمثّل الحبل المربوط بالصراط ، ويقول : أيها الإخوان لابد لنا من المرور على الصراط مثل هذا يوم القيامة ، صعوداً وهبوطاً بلا ريب .

وقال واحد إذا سمع مايقرؤه من أسماء المشائخ بأنه يكون من الأولياء المذكورين . وأنه قدس سره كان يبكي وقت الصعود إلى الحبل بكاءً شديداً خوفاً من الصراط . وكان هو أيضاً يبكي في الخلوات والجلوات في أكثر الأوقات ويُبكي الحاضرين معه في المجلس ، فإذا

---

(١) هي لعبة على الحبل .

تخلَّى عن الناس كان يبكي بكاءاً شديداً خوفاً من الله بتضييع الأوقات على هذه الوظيفة الخسيسة ، وأنه لم يفعل ذلك إلا لحكمة إلهية ، وكان ما يفعله من تلك الصناعة اللهوية صوريّاً لا حقيقيّاً ، وحصل له بسبب تلك الوظيفة ذُلٌّ وانكسارٌ ؛ وإن كانت حلالاً ، لما في « التحفة » بهذه العبارة : وإن كان في الوظيفة صورة محرّمة ، لكن ذات أنواع اللعب الخطرة الكائنة من الذين تغلب سلامتهم عنها حلال ، وكذا في الرملي ، وإذا مات يموت شهيداً ؛ كذا في « حواشي عبد الحميد الشرواني » رحمه الله ، وأن المعصية التي أورثت ذُلاً وانكساراً خيرٌ من طاعة أورثت عزّاً واستكباراً ، وبه قال أئمة الصوفية ، وأن الذنب للعبد قد يكون خيراً من الطاعة التي توقعه في العجب ، وبقاء العجب في الطاعة أكبر من كلِّ سيئة ، ومن كمال حال الفقير الذي أراد الله أن يؤهّله لتربية المريدين وإرشادهم وقوعه في بداية أمره ولو في نية مخالفة ، وذلك ليصير عنده حلم على العصاة ، وصبر على تقويم عِوَجهم ، وأنّ من سبقتْ له العناية لا تضرّه جناية ؛ كذا بيَّنه رحمه الله تعالى في تصنيفاته بعد أن صار هو على منصِب الإرشاد بفضل الله تعالى .

ملازمته الاستقامة ثم بعد ذلك نزل عن تلك الوظيفة ، ولازم على العلم والعبادة في حال شبابه ، وكان آثار الجذبات الإلهية وأنوار الهداية ظاهرةً في جبينه ، واشتغل أولاً بتحصيل العلوم الظاهرة عند أجلَّة علماء عصره المخلصين الورعين من أهل السنة والجماعة ، وفاق في ملازمته على جميع أقرانه ، وكان يحفظ جميع متون الكتب ، فإذا سئل شيئاً من أيّ علم يجيب ببيان الصحيفة والسَطْر ، وكان يعرب ويفسِّر مثل أعرب العرباء ، فمع كونه كذلك كان يُظهر فيه الجهالة وعدم العلم ، ويسأل العلماء الذين كانوا أدنى منه درجات في العلوم عن أسئلة العوام .

طريق سلوكه ثم بدى في أثناء ذلك داعية الدخول في سلك سادات الصوفية المسلسلة من سيّد الأمّة ، وانبعث من باطنه شوقُ صحبة الأولياء الكرام والمشائخ العظام ؛ أهل الطريقة المحمدية ذوي الاحترام ، ففي يوم حين كان هو متعلِّماً في قرية فلانية ذهب لدى واحد من مريدي الشيخ المرشد الحاج عبد الرحمن العسلي لتعليم الدرس فوجده يذكرالله بالذكر الخفي القلبيّ ، ويجرّ السبحة على قاعدة النقشبنديين ، فوقع المكالمة بينهما في تلك المثابة ؛ وقال له : إن شئت أدلّك إلى من يرشدك ويهديك إلى هذه المرتبة ، فاشتاق بفضله تعالى إلى لقائه وقصد الذهاب إلى حضرته ، ففي تلك الليلة استخار الله تعالى في حقّ ذهابه لديه ؛ فرأى في المنام أن المسجد الذي كان هو فيه مملوء من القماش الأبيض ، وكذا رأى في هذه الليلة كأنّ ماء صافية تسيل من موضع الوضوء إلى المسجد ، فأوَّل الواقعة إلى صلاحية الدخول في تربية المرشد المذكور العسلي ، فبعد صبح ذلك اليوم خرج باكراً زائراً إلى جناب حضرة الخليفة من سادات الصوفية قطب الإرشاد ومنبع الإمداد الحاج عبد الرحمان العسلي ، ولقيه بالفرح والبِشْرِ ببسط الوجه ونَشْطَةِ الكلام . وقال الشيخ قدس سره : لم أفرح في عمري أزيَدَ من هذا اليوم ؛ لاطّلاعه على أحواله الباطنة والظاهرة ، إن الله يعطي الحكمة لمن يشاء ، ما أحسن وأعجب فِراسة الشيخ ؛ قد علم من أوّل رؤيته قدره وجلالته واستفادته منه ، وعلّم الرابطة الشريفة والاستغفار والصلاة على كيفية النقشبنديين ، وساعتئذٍ قد علم حياة قلبه ، فبعد أيَّام قلائل ذهب ثانياً لدى حضرة الشيخ ، وتوجّه إليه ولقّنه الذكر القلبيّ ، وعَلِم حياة سائر اللطائف بحركة عجيبة وارتعاش أكيدة بذكر الله تعالى ، وكان المرشد العسوي أعلى الله درجته وأفاض علينا من فيوضاته يُربّيه أحسنَ تربية ويلاطفه ، ويحبّه أشدّ حبّاً من سائر

المريدين ، ويقدّمه ويشرّفه على خواصِّ أمنائه وأحبّائه ، وربآه إلى أن يصل إلى مراقبة السرِّ التي يكون مشرب السالك فيها موسويّ المشرب .

وأجازه بالإجازة المطلقة في الطريقة النقشبندية الصديقية في مجمع العلماء والعارفين من مريديه ، وأظهر علوّ مقامه وكراماته في ذلك المجلس مع كونه على خجَل ووجَل خاشعاً من الله تعالى يكاد أن تذوب أعضائه من شدة الحياء من المرشد والمريدين ، وكان خائفاً كارهاً أمر الإرشاد والخِلافة ، لكونه رأى في نفسه عدم الأهلية لذلك المنصِب العظيم ، وكان يقول : فلولا أن أمر الشيخ من واجب الاقتداء لما أجبته لذلك ؛ ولا قبلته ، بيد أنه لم يصحَّ ردُّ ما ألزمه الشيخ ، فقبله بالحياء الشديد ، فأمضى من بعده زمناً مديداً نحو سبع سنين بإخفاء هذا الأمر عن الناس ، وتزهَّد في ذلك الزمن ولم يطلب من الدنيا إلا قدراً يسيراً بحيث يسدُّ الرمق ، ولم يلبس إلا منخرقاً ، ونهى النفس عن الهوى ، وانعزل عن الناس ولازم البيت ، وكان هو فقيراً ذا عيال ، وعلم الشيخ حقيقته ودعاه لديه فقال : إنّي جعلتُكَ خليفتي وخليفة الرسول ، وسلطان السلاطين وأمير الأمراء ، وأعطيتك الدنيا والآخرة ، فأمر بالإرشاد وأكَّد الأمر به ، فاستعفى قدس سره كرّات ومرّات وكان لايريده ؛ وقال : يا أستاذي ، لو رددتَ عنّي هذا الأمر العظيم لكنت في كهف خال عن الناس مع العيال بترك العقار والمنقول ! ! فأكّد الأمر ثانياً بحيث لا يكون له بدّ لردّه . فامتثل قدس سره أمره ، وقَبِلَ ذلك المنصِب العظيم ، وأمره الشيخ بخلع تلك الملابس المنخرقة ، وبلبس اللباس الحسنة الجديدة ، وبإرشاد الخلق إلى سبيل الحق ؛ وقال : أنت خليفتي ، فيدُك يدي وقبولك قبولي . فقال قدس سره : يا أستاذي لست أهلاً لهذا الأمر الرفيع . ثم أغلظ القول ؛ وقال : افعل ما تُؤمر . ثم قبل قوله سمعاً وطاعة ، فبعد ذلك ابتدأ لإرشاد الخلق ، وقعد على

سجادة الخِلافة : مستعيناً بالله العظيم ، ومستفيضاً من الرسول الكريم ، ومتوسِّلاً بالسادات الكرام ؛ أهل الطريقة ذوي الاحترام .

اشتهار أمره واشتهر أمره بين العباد ، وارتحل إليه كلُّ من أراد السلوك إلى سبيل الحقّ حتى من أقصى البلاد ، فبعد ذلك قد كثر المريدون الحاضرون ، وسعى إليه الطالبون من كلِّ جانب ، وجاؤوا من القرى البعيدة والبلاد الشاسعة حتى صار الحاضرون في كلِّ يوم جمّاً غفيراً ، واجتهد لهداية مَن حضر لديه من الطالبين السالكين في تربيته لله تعالى ، ولأجل رسوله ﷺ ؛ امتثالاً لقوله تعالى ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ ، ولقوله ﷺ « لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها » كذا في « الإحياء » في صحيفة ٩ ، وقال عليه السلام : « الدالُّ على الخير كفاعله » . فبعد إقامته على هذا المنصب العظيم ذهب الشيخ الحاج عبد الرحمن العسوي قدس سره إلى الحج وفوَّض أمر الإرشاد إليه ، ومات هو رحمه الله في جِدَّةَ إياباً بعد إتمام الحج ، ودفن فيها عند قبر حواء رضي الله تعالى عنها وأفاض الله علينا من فيضه العميم ، وكان هذا السفر منه ثانياً إلى الحج .

لحوقه بالشيخ شعيب الباكني ثم بعد نقله من هذه الفانية إلى جوار رب البرية ذهب الشيخ حسن أفندي لدى الشيخ الشهير الحافظ الحاج شعيب أفندي الباكّني قدس سره ، وقَبِلَه بالتحيّة والإكرام ، وربّاه بأحسن تربية وأوصله إلى المشرب المحمديّ ، وأذن له بالإذن الصحيح ، وأجازه بالإجازة المطلقة كما أجازه أشياخُهُ ، وكتب له صكّ الإجازة في الطريقة النقشبندية العلية ، وانتقل الشيخ الباكني إلى جوار ربّ العزة قدس الله سره العزيز ، ونور الله ضريحه ، وأفاض علينا من فيوضاته .

لحوقه بالنزبكري ثم ذهب لدى حضرة القطب المستور مير سيف الله النقشبندي الشاذلي القادري الأويسيّ الحسينيّ النزبكري الغازي غموقي

قدس سره العزيز ، وقبله قبولاً حسناً وتفطّم منه بالرضاع المعنوي ، وصبَّ ذلك القطب الأعظم والشيخ الأكبر ما في صدره إلى صدر الشيخ حسن حلمي أفندي ؛ وقال : صَبَبْتُ ما في صدري إلى صدرك . وأجاز له في الطريقة الصديقية العلية ، والشاذلية السنية ، والقادرية الجليّة ، وفي جميع العلوم الظاهرة والباطنة ، والأحزاب المأثورة من أئمة الصوفية ، وفي « صحيح البخاري » و« مشكات المصابيح » ، وفي « الحزب الأعظم والورد الأفخم » ، وفي « دلائل الخيرات » و« الطريق العالية » ، و« البردة الشريفة » ، والأحزاب المنسوبة إلى العارف الشاذلي ، و« حزب الإمام النووي » و« حزب الدور الأعلى » للشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي ، وسائر الفنون النقلية والعقلية ، وكتب الأحاديث الصحيحة المسلسلة ، وفي الطريقة العالية من طريق الحسن ؛ كما هو مذكور في الثبت ، وفي سائر العلوم والأحاديث ؛ حتى لكتابة التمائم والأسباب فيما لا يحصى عدُّه ، وأوصله إلى الدرجة العلية والمراقبات الأقربية ، وصار هو كائناً بائناً ، عرشياً فرشياً ، فانياً باقياً .

وفاة النزبكري ثم بعد ذلك انتقل الشيخ الأكبر والقطب الأعظم سيف الله قدس سره من هذه الفانية إلى الدار الأبدية الباقية ، ودفن في غزانش الأعلى ، نوّر الله مرقده وأفاض علينا من فيوضاته . آمين . وكان قدس سره يقول قبيل خروج روحه هَيْ اَمَانْ حَسَنْ ما رأيتك ! جمعنا الله معك في دار السلام .

ثم تفرَّد في ديار داغستان في المَشْيَخَة الصادقة الصديقية ، وتوحَّد في الطريقة الشاذلية السنية ، ولكن لم يُظهر الطريقة القادرية الجلية لعدم وصول صكّ الإجازة من الشيخ المذكور المرحوم المغفور له ؛ وإن كان مجازاً فيها بالإجازة الصحيحة المطلقة مشافهة ، وذلك لشدَّة

إنصافه وصفائه في الطريقة النبوية ، وإن الوثيقة وصكّ الإجازة ولبس الخرقة مما جرت به عادات سادات الصوفية المسلسلة من صاحب الشريعة صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم .

وصار هو مجدداً للقرن الرابع عشر ، وشهد له بذلك أشياخه المذكورون قبلُ ، وازدحم المريدون السالكون في الطريقة النقشبندية الخالصة من كدورات جهلة الصوفية ، وفي الطريقة السنية الشاذلية العلية في زاوية داره وعَتَبَة بابه ، وأقرَّ له العلماء والعقلاء والصلحاء ، وانتشر صِيته في الأقطار والبلاد ، وتواترت آثاره وأخباره بين العباد ، وجاء لديه من أراد الوصول إلى حضرة الخالق من بلاد الشرق والغرب ، ومن أبعد الطريق ، بل من كلّ فجّ عميق .

بداية تصنيفه فبعد ترصّده على هذا المنصب العظيم قد طلع أنوار العلوم الباطنة اللدنية من صدره ، وأشرق شمس الهداية من جبينه ، وصنَّف كتباً عديدة مستطابة بالعرب والعجم ، وبها حصَّل للجهلاء علوماً ، وللعلماء فهوماً ، وشاعت العلوم الباطنة وآداب السلوك في جميع أقطار داغستان ؛ كما شاع ضوء الشمس في بَسْط الأرضين والسماوات والآفاق والبلدان ، وتوجه إليه من النواحي الحوالية الخواصُّ والعوام وفداً وفداً ، وأخذوا منه العهود فرداً فرداً ، وأرشد من حضر لديه بالنية الخالصة والاعتقاد الكامل صغيراً وكبيراً ، ذكراً وأنثى ، جاهلاً وعالماً ؛ فصاروا من الذاكرين الله والذاكرات كثيراً ؛ منهم عرشيين فرشيين ، واصلين مواصلين ، لا يشغلهم الخلق عن الحق ، والحق عن الخلق .

مريدوه وكان له من المريدين والمرادين مَن وصل إلى الولاية الصغرى والولاية الكبرى ، وإلى المشرب المحمدي ؛ إذا رأيتهم عجبتهم بالعبادة الخالصة السرية الصافية عن العجب والرياء ، وأقرَّ له كلّ معاند وملحد ، وكل عالم حاذق ، وسَعَوا إليه بعد أن كانوا معاندين ومنكرين ، فكم من

عالم ذكي وفاهم لبيب كانوا يرسلون الرسائل إليه بسببٍّ طريقته وذم أخلاقه ؛ وإذا رأوه وجاؤوا لديه أقرّوا له ودخلوا في دائرة تربيته ! ! وأخذوا منه العهود ، ولازموا عليها ، ووصلوا إلى المراتب العلية ، وذلك من شدَّة تصرّفه وقوّة سرّه وسريرته .

من أخلاقه وكان يتكلم مع من جاء لديه بالمداراة ، ويحسن أخلاقه بحيث يوافق حاله ، وإنه كان لا يقبل إلا ما خفي وسُتِر ، ولا يأذن لإظهار الكشوفات والخوارق ، ويقول : الكشف حيض الرجال ومنصب الشيطان . وكان لا يُظهر ما ظهر له من الكشوفات الإلهية ؛ وإن كان هو أسبق الأولياء المكاشفين .

وكان وَرِعاً لم يُرَ منه ما يخالف الشريعة ؛ ولو أدنى شيء . وكان ذا أخلاق حميدة ومناقب سديدة ، وطبع سليم وحياء عظيم ، بارعاً حاذقاً في جميع العلوم ؛ نثراً ونظماً ، عرباً وعجماً . وكان بسيط الوجه نشيط النطق ، يحبّه كلٌّ من رآه ، وقوراً حليماً ، سخياً جواداً ، مطابقاً مسماه باسمه ، معرضاً عن حبّ الدنيا وحبّ الجاه .

وكان محسناً لرياضة نفسه من قلة الأكل والنوم والقول ، وكثرة الصلاة والصدقة والصوم ، ومتواضعاً صادقاً ، ذا وفاء ووَقار .

وكان رؤوفاً عطوفاً على الفقراء والمساكين والأيتام ، ذا مروءة وغَيْرة ، جميل الصوت مدوَّر الوجه ، أبيض اللون مائلاً إلى السواد ، طويل اللحية كثيف الشعر قد ابيضَّ ، نحيف الجسم معتدل القامة .

وكان تقياً نقياً ، فقيراً صابراً حُسَينياً ، وكان ذا عيال وأولاد ، لا يطلب من الدنيا إلا قدراً يسيراً حلالاً ، لا يقبل هدية إلا حقيراً مثل الكعك والرغيف .

وكان شديد المنة ؛ كثير العفة ، وكان يزجر الأولاد والأحباب

عن قبول الهدايا والإحسانات ، ويقول لهم : إني أريد أن أكون كالتيس ؛ ولا أريد أن أكون كالمعز . الإنسان عُبيد الإحسان .

وكانت عادته إذا أحسن إليه المحسن بقدر عَبَّاس واحد يكافئه بعشرة عبابيس بل أزيد منه ، وكان يقول للمريدين : هلاَّ تقسمون ما أهديتم إلينا للفقراء والمساكين ! ! وكان لا يترك عنده ولو قدراً يسيراً من الهدية ، بل يسلم ما جاء به واحدٌ لآخر .

وكان قدس سره ساتراً لأحواله بحيث لا يقدر أحد أن يطّلع على أحواله وأسراره ، وكان أكثر كلامه بالإشارة ، وكان يخبر بالمشافهة مع الإشارة الغريبة ما سيقع بعد سنين ، وقد وقع الكل كما أشار . ذَكَرَ ذلك كثير من الناس إذ رأوا ما قاله عياناً .

تصانيفه وناهيك دليلاً لكماله مُصَنّفاته الحسنات المباركات مثل :

١ « تنبيه السالكين » عرباً وعجماً منظوماً

٢ « تلخيص المعارف في ترغيب محمد عارف »

٣ « خلاصة الآداب » عجماً منظوماً

٤ « البروج المشيدة بالنصوص المؤيدة »

٥ « السفر الأسنى في الرابطة الحسنى »

٦ « سراج السعادات في سير السادات »

٧ « الدرة البيضاء في رد البدع والأهواء »

٨ « جهد المقل »

٩ « فيض الرحمن في كلام عبد الرحمن »

١٠ « وسائل المريد في رسائل الأستاذ الفريد »

فبسبب تلكم المصنفات النفيسات اشتهرت طريقته في البلاد ، وتواترت أخباره بالإرشاد ، ونوّر العالم بيُمْن توجُّهاته العلية وأحواله السنيّة ، وزالت ظلمات الجهل والبدع بظهور تأليفاته المستطابات بعدما غشيت الأقطار والبلاد بالأهواء والمخترعات في الطرق المنيرات المصطفويات ؛ بزخارف المعاندين المنكرين المبتدعين المتشيّخين المارقين ، وببركة علومه وآثار أنوار معارفه قلّت البدعات وانهدمت المبطلات .

من توفيق الله له وأنه رحمه الله تعالى شيّد مصنّفاته بالمآخذ والنقول من الكتب المعتمدة المأثورة من أئمة الفقهاء والصوفية ، لكن لم يشر عليها بالمطالعة على الكتب ، بل بما فتح الله له من العلم اللدني ، وأنه صنَّف كتابه « البروج المشيدة بالنصوص المؤيدة » مدة ثلاثة عشر يوماً بالتصنيف والتحرير ؛ مع تربية المريدين الواردين كل يوم أزيد من أربعين رجلاً ، وذلك بما فتح الله له وبتوفيقه .

هيبته وسَمته وكان ذا هيبة عظيمة ، كثير البركة في شَيمه ؛ لا يشبع أحد من كلامه وألفاظه ومعارفه القدسيّة ومن الجلوس معه ، كما لا يشبع أحد من مجلس رسول الله ﷺ من أقواله وأفعاله وسنته .

وكان قدس سرّه يحسن الظنّ ويليّن الكلام عند كل أحد ، ولم يصدر منه البتّة كلمة ؛ ولا كلام يسوء به ظنّ أحد ؛ في أيّ حال كان .

وكان يقول : إن أستاذي المرشد الحاج عبد الرحمن العسوي قال لي قبيل إعطاء الإجازة : يا ولدي ؛ لا تقل على أحد بما ينكسر به القلب ؛ وإن وجدت الزاني والزانية بالمواقعة ؛ إلا بالسؤال من الله تعالى بمنعهما من الفاحشة المحرّمة . وأنه رأى امرأة في أيكته تأخذ

وتسرق الخشبة اليابسة ؛ فضرب الفأس على الشجر مرّاتٍ ، وتنحنح ليُسمع المرأة ثم تركها تأخذ الحطب ، ولم يذهب لديها ؛ ولم يتكلّم لئلا تستحيي منه .

وكذا من طبيعته أن يقول ـ للّذي يعيب الناسُ عليه بارتكابه على الذنوب والمنكرات ـ : أحبّك حباً شديداً ، لأجل كوني سمعت الناس يقولون بكونك تمنع وتحفظ من المحرمات كذا وكذا ، وإنّي أردت كون الناس يقولون مثل ذلك في حقّك . ويقول على مريده الصادق عند الذي يعيب عليه الناس : لما لا تفعل كذا وكذا تنبيهاً له وإيقاظاً من الغفلة .

وأخرى : أنَّ جاره سرَق دجاجته وعلم سرقتَه جارُهُ الآخرُ ؛ فقال لابنه : إنه سرق دجاجتكم ، فأخبر الابن لأبيه ، فهدَّد له وخوَّفه ، وقال : لا تعلِّم على السارق علمنا ما فعله ، إيّاك وإيّاك أن تعلِّمه .

وأيضاً : أخبر لرجل سارق من قرية أخرى بأنه سُرِق ثوره كذا في زمن كذا ، وبيّن صفته ! ! فقال ذلك الرجل : إنّ ذلك الثور سرقناه فنغرم لك ، فاصبر إلى أن أرجع إلى القرية ، فقال قدس سره : إنّ الثور الذي سرقتم لعلّه لم يكن ثوري ! ! وقال السارق : إني أعلم يقيناً كونه لكم .

وأخرى : كان الناس يعيبون عليه بإقامة الصلاة خلف الجاهل والفاسق ! ؟ وقال : إني أقيم الصلاة خلفه لئلا يسوءَ ظنه وإن وقع لي التردُّد والإشكال ، فإن شككتُ صحتها وظننت بطلانها ، فهل لا يجوز أداؤها بعد الفراغ من صلاته بحيث لا يعلمه ! ! .

وأخرى : قال له واحدٌ : فإنّ مريديك يفعلون كذا وكذا من المحرمات والمحظورات ، فلِمَ لا تقول لهم بتركها ؟ ! فقال : أنا الداعي

إلى الله تعالى ؛ فإن قلتُ أمثال ذلك يفرُّون منّي ، فحينئذ أكون من الذين يمنعون الناس من الله عز وجل ، وذاك مما لا يجوز ! ! فإني قلتُ على واحدٍ منهم شيئاً يسيراً فلم يرجع إلينا بعده ، فلا يمكن لي إلا السؤال من الله تعالى ، ولم أقل على أحد إلى الآن : لِمَ فعلت كذا وكذا ! !

وكان يقول : لا بُدَّ للمرشد أن يكون له رجل للمدح ، ورجل للذمّ .

وكان يمدح من يعمل عملاً صالحاً للمسيء ، ويذمّ من يفعل عملاً سيّئاً للمحسن تنبيهاً لهما . وإنه كان يقول على أولاده : مَن لطم وضرب على وجوهكم قولوا له : اِضرب ثانياً ؛ إن كنت غاضباً ، ولا تضربوه ، فإن ضربتم لستم أولادي .

ملبسه وكان أكثر لباسه في أكثر الأوقات من منسوجات الصوف أي « صُغُرْ » عجم ، ولم يفعل قطّ شيئاً ما للزينة ، وكان لا ينهَر السائل ؛ وإن سأل منه ما يحتاج إليه بالضرورة في الحال . وكان يُتمُّ أمور المساكين والأيتام ويتفقَّد ويتفحَّص عن حوائجهم بالاستقراء . وكان الناس يقولون بعضهم لبعض : إن كان عندكم شيء لا يشتريه الناس فأعطوه محاباة للأستاذ فإنه يعطى قيمته الزائدة .

وإنه إن كان على قصد شراء شيء ما من السوق أو غيره كان لا يتفحّص عن قيمته من المالك ، بل ممن حوله ، ويسلّم ما قاله خوفاً من إعطاء صاحبه بقيمة رخيصة بالحياء منه ، وإنه كان يقول على أولاده : لا تعيبوا على أحد لفعله شيئاً منكراً ، واحملوه محملاً حسناً ، لعلّ له وجهاً ولو ضعيفاً ! !

وإنه قدس سره كان يبكي بكاء شديداً إذا حلّت البلاء ؛ ويقول :

تلك بسبب معصيتي .

وكان يقول : لا تحقّروا أحداً ممن لقيكم ، وعليكم أن تظنوا أنه من أولياء الله تعالى ، أو هو الخضر عليه السلام ، وبه يحصل لكم منه البركة كما يحصل من الخضر عليه السلام .

وكان لا يحب القيام له إذا حضر إلى مجلس ما ؛ مسجداً أو غيره ، ويقول : إنّي أحبّ أن يلطم أحدُكم وجهي من قيامه ، فاضربوني بلا قيام ، كذا كان ينصح للناس في غالب الأوقات .

وإنه كان يستفيض من مريديه ويوصي بالدعاء على من لقيه ؛ ولو فاسقاً .

وإنه كان يُخفي كشفه ولا يعمل به ، ويقول : إن الكشف لا يكون صادقاً ولو واحداً في المئة ، وينكر على من يقول بأنه يعلم بالكشف كذا وكذا .

وإنه كان يقول : إذا كنا في مجلسه وصحبته : ألا إني أعلم أحوالكم حين كنتم في مجلسي هذا ، بل أعلم أحوالكم وإن كنتم في المغرب وأنا في المشرق ، فإذا لاحظتموني يطرأ عليّ أحوالكم وقتئذ ، وكان يطلع على أحوال الناس سريعاً ، ويجيب لما أشكله المريد بلا سؤال .

معاشرته وكان يعاشر الخلق بالمعروف ، ويداريهم ؛ ولو مع الكفار والفساق بالحسن والكفوف ، وكان بابه كباب السلطان الأعظم والخليفة الأفخم في ازدحام الناس إلى زاويته ، وكان يتكلّم مع الناس بقدر عقولهم ، وموافقاً على ظواهرهم وبطواطنهم ، ويؤانسهم وفق فهومهم .

وكان في الحلم والعفة والنجابة والنقابة بحيث يضرب به المَثَلُ

بين الناس ، وكان ذا كرامات عجيبةٍ وخوارق عديدة ، وإذا خَطَرَ لنا في مجلسه خَطْرة مّا ينبّهنا بالإشارة ويخبر بما في قلوبنا بالمثال الغريب بحيث لا يفهم إلا أهل الذكاء والفطانة . وكان لا يمرّ بين من لقيه في الطريق ولو صبيّاً ، وكان يسبق بالسلام والكلام .

وكان حليماً عاقلاً كاملاً بحيث يرجع إليه ذوو القول في مشاوراتهم وتدبيراتهم ؛ حتى الولاة والكفار خذلهم الله تعالى .

حاله مع شيخه ومن أعظم كراماته كونُه خليفةً ومأذوناً من السادات المذكورين قبلُ ، وإن القطب المستور السيد الأمير سيف الله النژبكري قدس سره قد أثنى له بالعبادات التي تدهش العقول بسماعها ، وتتحير الأفكار بتفكّرها ، وتنشق القلوب بقراءتها ، وأنه قدس سره كتب إليه مكاتيب عديدة بحيث لا تحصى بالنظم والنثر ؛ ثناءً عليه ، وقال :

يا حبيب القلب بالي في الخطوب ... فـي أمور ليس لي غير الصعوب
يا أنيس الروح مالـــي مؤنـــسٌ ... غيرك المرجوّ في خطب الكروب
طيفُكَ الميمون في قلبي سرى ... سيرك المحمودُ علام الغيوب
أنت نعم الخلّ يـا نجم الهـدى ... أنت سرّي أنت مفتاح القلوب
كيف لا أنـــت ســـرور الفقراء ... يا وصيّ القطب مفتاح الشعوب
عجبا كـــــيف أتـــى تاريخكـم ... جاء فيّاضاً لإحياء القلوب . . .[1]

وكتب قدس سره في مواضع عديدة من « مكتوباته » : أنت وسيلتي إلى الله ، وأنا بكم وأنا دونكم ، ولا تنساني في دعواتكم .

وألبسه الخرقة البيضاء في مجمع من العلماء والخواص التي ألبسه شيخه قطب الوقت زين الله الشريفيّ المعموريّ بيده المباركة ،

(١) الأبيات بتمامها في آخر « مكتوبات خالد سيف الله » قدس سره .